

الفصل الخامس

التعلم للكسب

من المؤلف أن نسمع الطفل الصغير يعبر في أحاديثه عن رغبته في
تحتاراف مهنة معينة في كبره ، كأن يكون من رجال الشرطة مثلاً . وكثيراً
ما يبتسم الكبار ويقولون : « سوف نرى » ، أو يذكرون له أنه سوف
يغير رأيه ، ويفكر في حرفة أفضل ، عندما يكبر . وقليل ما يخطر ببالهم
أن عبارة الطفل ليست مجرد نزوة عارضة ، فإن بعض التأمل والتفكير
يدل على أن الطفل ينتقى من بين الكبار الذين يقابلهم واحداً فقط يتخذ
منه أنموذجاً يحاكيه ، واختياره هذا يقوم على أسباب قوية . فالظواهر
العقلية تخضع لقانون العلّية ، شأنها في ذلك شأن سائر الظواهر الطبيعية
والكيميائية والبيولوجية .

حدث ذات مرة أن صبياً كان يسير مع أبيه عندما ضل أبوه طريقه ،
فسأل رجل الشرطة أن يرشده إليه . وقد ترك ذلك في نفس الصبي أثراً
عميقاً ، إذ أدرك أن رجل الشرطة يعرف أشياء يجهلها أبوه . وكانت تلك
أول مرة يدرك فيها الصبي أن هناك أناساً آخرين أوفر معرفة من الأب

الذى كان يظن أنه محيط علماً بكل شيء . ومن ثم أصبح رجل الشرطة ، لا الأب ، هو المثل الأعلى الذى يصبو إلى الوصول إليه فى المستقبل .

كذلك أبصر صبى آخر أحد رجال الشرطة يأمر جماعة من الرجال بالتحرك من مكانهم ، بدلاً من التسكع على الإفريز وتعطيل حركة المرور . وقد صدع الرجال بالأمر على الفور . ولما كان الصبى معتاداً أن يطيع الأوامر ، لا أن يصدرها ، فإنه اعتقد أن الشرطى شخص واسع السلطان ، ينبغى على الكبار والصغار أن يأتروا بأوامره ، ويتنبهوا بنواهيه . وقد تأيد هذا الاعتقاد بإجابات أبيه عن أسئلته ، إذا اكتشف الطفل منها أن أباه يرى أن إطاعة أوامر رجال الأمن أمر عادى لا بد منه . وهكذا يصبح اشتباه الصبى الطاموح لأن يكون من رجال الشرطة أمراً طبيعياً .

ومهنة الطب أيضاً من الرغبات الشائعة . فإن الطبيب قد يؤثر فى الطفل قدر تأثير الشرطى فيه . فالآباء يلجئون إلى استشارته لأنه يعلم من أمور المرض أكثر مما يعلمون ، كما أنهم كثيراً ما يعبرون فى حديثهم وسلوكهم عن حيرتهم وعجزهم عن التصرف حيال حالات المرض الطارئة . فقدره الطبيب الملحوظة ، وسرعته فى اتخاذ القرارات الحاسمة ، ومهارته ، وأوامره ومطالبه ، كل ذلك يضاف على شخصه تأثيراً قوياً إذا ما قورن بالأبوين المضطربين الحائرين . ولذلك لا يكون من المستغرب فى كثير من الحالات أن تفضى مثل هذه الخبرات بالأطفال إلى التعبير عن رغبتهم فى احتراف مهنة الطب .

وقد تكون هناك أسباب أخرى لظهور هذه الرغبة ؛ ومن ذلك أن صبيًا في السابعة من عمره ، كان أول فرقته في جميع مواد الدراسة ، ذكر لمعلمته أنه اعتزم أن يكون طبيبًا عندما يكبر . ودون أن تستقصى المعلمة أسباب ذلك الاختيار ، أنبأت الصبي أن في وسعه أن يحقق رغبته إذا ما واطب على الجد في عمله . ولكن أحد الزائرين ألقى على الصبي السؤال الآتي : « ماذا يعمل الطبيب ؟ » ، فأجاب الصبي بأنه لا يعلم عن ذلك شيئًا . ثم ذكر في إجابته عن سؤال آخر أن طبيبًا عاده في أحد الأيام ، فاختبر نبضه ، وفأس درجة حرارته ، ثم وصف له دواء . وأضاف الصبي إلى ذلك قوله إنه غير ميال إلى أداء مثل تلك الأعمال . وقد أوضحت هذه الإجابة للزائر بإلقاء السؤال التالي : « إنك تبلغ من العمر سبع سنوات ، فما سن أخيك الأصغر ؟ » ، فقال الصبي : « أربع سنوات ... ولكنه ليس أخا ، بل أختا » . ثم أضاف على الفور : « كثيرا ما فكرت في أن أكون نجارا » ، فسئل ثانية : « وماذا يعمل النجار ؟ » ، وعندئذ أجاب بقوله : « إنه يصلح الأشياء » . ثم استمر يقول : « إن أختي تحطم الأشياء دائما ، وتشير غضب أمي » .

هذا المثال من الأمثلة المألوفة ، وهو يصور لنا حالة طفل كان يحظى بعناية فائقة موصولة ، حتى بات يعتبر ذلك حقًا عاديًا من حقوقه . ولكنه أكره على أن يحتل المكانة الثانية بسبب مولد طفل آخر ، دون أن يكون مستعدا لاستقبال هذا الصيف الجديد . وعندما أراد الاستفسار عن

المكان الذى أتى منه الوليد ، شأنه فى ذلك شأن سائر الأطفال فى مثل هذه الظروف ، أنباء والداه بأن الطبيب هو الذى أحضره ، فاعتقد الصبي أن فى مقدوره ، إذا ما أتيح له أن يكون طبيباً ، أن يتحكم فى أمور ليس لأبويه سلطان عليها . أما مدلول رغبته فى أن يكون نجاراً فواضح ، إذا كان يعتقد أن فى الإمكان استعادة ما فقد من الخطوة لدى أمه إذا ما تمكن من إصلاح ما تلفه أخته ، عندما تكون أمه غاضبة عليها .

ومن السير ذكر أمثلة أخرى كثيرة من هذا النوع توضح كيف أن اختيار الطفل لمهنة من المهن إنما يقوم على الرغبة فى أن يكون شخصاً ذا أهمية ، وأن يحتل مركزاً يتيح له أن يصدر الأوامر بدلاً من تلقاها ، فيعكس العلاقة بين الأوين والطفل ، أو يستعيد ما كان مشمولاً به من سابع العطف ، وموصول الرعاية ، عندما كان صغيراً عاجزاً عن الاعتماد على نفسه . فاختباره محدود إذن برغبته فى الظفر بالإشباع النفسى .

وقد تنتاب الطفل فى مرحلة تالية من حياته الرغبة فى السير على منوال أبيه ، أو فى احتراف مهنة قريب يحبه ، أو شخص كبير آخر يعجب به ، ويميل إليه . ولكن اختياره لا يكون قائماً على فهم حقيقى لطبيعة العمل الذى يريده ، أو على رغبة أكيدة فى كسب أجر من ورائه ، بل إن كل ما يوده ، هو أن يغدو شيئاً بشخص أثار إعجابه لسبب من الأسباب .

وكثيراً ما يظهر اتجاه آخر عنده فى المرحلة التى تعقب ذلك . وينبغى

ألا يغيب عن بالنا أن أطفال عمال وعاملات المصانع في كثير من المناطق الصناعية ليست لديهم أية فكرة عن طبيعة العمل الذي يقوم به آباؤهم . أما في الأزمنة الماضية فقد كان أصحاب الحرف يعملون في بيوتهم ، وكان العملاء يحضرون إليهم ، ويستشيرونهم فيما يريدون عمله ، ويدفعون لهم أجر ما يصنعونه لهم . ولهذا كان الأطفال يبصرون كيف يربح آباؤهم المال ، ويعرفون الكثير عن نوع العمل الذي يؤدونه ، كما أنهم كانوا يساعدونهم فيه عند ما يبلغون السن التي تساعدهم على ذلك ، وكانوا دوماً على استعداد لتوارثه عنهم فيما بعد . ولكن أبواب المصانع الحديثة تحول دون اتصال الطفل بأبيه في أثناء عمله ، فهو يعلم أنه يعود إليه آخر النهار مغبر الوجه ، مجهد الجسم ، كما أنه يحضر معه نقوداً في أمسية معينة من أمسيات الأسبوع كذلك يعلم أنه يكون عقب عودته إلى بيته في مسيس الحاجة إلى الاغتسال وتغيير ثيابه ، ثم الاسترخاء والراحة . ويعرف بعض وسائل إنفاق المال ، ولكنه يجهل كل شيء عن طرق كسبه . ولذلك لا يدهشنا أن نجد عدداً من الأطفال يذكرون ، في إجاباتهم عن الاستخبارات^(١) الدقيقة التي وضعت خصيصاً لمعرفة المهن التي يفضلها الصغار في سن الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة ، بالفرق النهائية من المدارس الابتدائية ، أنهم : « يفضلون المهن التي تكون ساعات العمل فيها قليلة ، والعمل سهلاً ، والأجر كبيراً ، والعطلات طويلة » . وهكذا يعبرون عن رغبتهم في حياة خالية من المشقة

(1) Questionnaires.

والإجهاد ، حافة بقدر من الحرية يكفي لأن يعمل المرء ما يريد .
كذلك حدث في إحدى المناسبات أن زار أحد الموظفين المحليين
بمصلحة العمل مدرسة ابتدائية ليسأل عما إذا كان بين التلاميذ الذين على
وشك مغادرة المدرسة من يريد العمل في مصنع للحلوى ، أو إحدى المطابع
ولكنه لم يجد من بين التلاميذ السبعة الذين قاربوا الانتهاء من دراستهم
من له رغبة في إحدى الوظيفتين . وقد حاول الرجل إقناعهم بأن كلا
العملين سوف يتيح لشاغله فرصة كاملة لتعلم حرفة تدر عليه أجراً كبيراً
في المستقبل ، ولكن الأطفال جميعاً أصرروا على الرفض . وعند ما أخذ
الموظف يسأل كلا منهم على حدة عن نوع المهنة التي يميل إليها ، أجاب
أربعة منهم دون تردد بأنهم يريدون أن يكونوا « رابينة لعابرات المحيط »
ولم يكن أحد منهم قد رأى قط إحدى هذه العابرات ، فلم يكونوا يعرفون
عنها أكثر من أنها سفن ضخمة . وعند ما سئلوا عن أول خطوة ينبغي
عليهم اتخاذها لتحقيق أملهم ، حارروا جميعاً في الإجابة . وقد وقع لهم بعد
ذلك ما لم يكن بد من وقوعه ، فإنهم اضطروا بعد مدة وجيزة من تخرجهم
إلى الاشتغال بأعمال تافهة لا تفضي إلى غير البطالة ، أو بالمهن التي لا تعتمد
على المهارة . وكان ذلك قبل ظهور النظام الأخير الخاص برفع السن
لمغادرة المدرسة .

فوقوع الاختيار على « قيادة إحدى عابرات المحيط » باعتبارها المهنة
المفضلة قد يكون قائماً على أساس إسهاب الصحف حينئذ في الحديث عن

ربابنة تلك السفن ، ونشر صورهم ، وهم في ثيابهم الرسمية الخلابية ، تحت عناوين ضخمة . وقد ذكر أحد الأولاد أن حياة أولئك الرجال « حافلة بالمغامرات » ، ولكنه لم يستطع تحديد ما يعنيه بهذه العبارة . فالرغبة في الظهور بالمظهر الأخاذ ، وفي الخطوة بالإكبار ، وحب البطولة ، كانت جميعاً العوامل التي حددت ذلك الاختيار .

وعلى الرغم مما قد يبدو في مثل هذا النوع من الاختيار من سخف ، فلا ينبغي لنا أن نهمل شأنها ونرفضها ، لأنها توحى في الحقيقة بما ينشده الصغير من وراء عمله ، كما نرى ، لا عن استعداد لهب المهنة التي اختارها لنفسه فحسب ، بل عن استعداده أيضاً لكرهية أية مهنة أخرى لا تكفل له نوعاً معيناً من الإشباع الذي يفضي حرمانه منه إلى برمه بالحياة وقلقه ، وضعف إنتاجه ، وإخفاقه في التعاون مع زملائه ، وإلى كثرة تغييره لنوع عمله أملاً في الوصول إلى عمل يحقق له ما يسعى إليه من إشباع . ولكنه من ناحية أخرى قد يستمر في أداء العمل الذي يكرهه من أجل الأجر الذي يتقاضاه ، ولكي يستطيع أن يستمتع بأوقات فراغه . واستمتاع المرء لا يعنى السعى وراء اللذة في الحياة العادية ، بل يعنى اكتشاف مشيرات تعوضه عن ساعات العمل المضنى المفروضة عليه ، وعن الخضوع الموصول لنظام بغيض .

فالمطالبة بأن يكون العمل هيناً ، والأجر كبيراً ، والعطلات طويلة تعنى الرغبة في الحصول على شيء لا يقدم له الفرد مقابلاً ، كما تشير إلى أن

الطالب لم يزل بعد في طور الطقولة المتواكلة ، وتوحى أيضاً بأنه يود أن يعمل تحت رئاسة شخص يقوم منه مقام الأب أو الأم اللذين ألفهما في حياته المبكرة ، واللذين كانا يزودانه بالماكل والملبس والمأوى ، ويعطيانه مصروفه اليومي ، كما يمنحانه بين الفنية والفينة قدراً إضافياً من المال لشراء لعبة جديدة ، أو للذهاب إلى إحدى دور السينما ، دون أن يطلبها منه شيئاً مقابل كل ذلك .

واقدر كان من العبث أن نبين لأولئك الصغار مدى اختلاف هذه الفكرة التي تكونت في أذهانهم ، عن الماهية الحقيقية للعمل . فهم قد ينصتون إلى ما يقال لهم ، ويفهمونه بالصورة التي يفهمون بها مختلف القواعد الشفهية ، وقد يكتبون عنه موضوعاً إنشائياً بديعاً ، ولكنهم مع كل ذلك لن يقتنعوا أو يتأثروا به . وقد يكون لهم بعض العذر في ذلك ، فإنهم كانوا يشاهدون كل يوم بعض الذين كانوا إلى عهد قريب يخرجون كل صباح إلى مدارسهم ، قد أصبحوا الآن يربحون ما خيّل إليهم أنه قدر كبير من المال ، من وراء قيامهم بحراسة العربات التي تقطع شوارع لندن جيئة وذهاباً محملة بمختلف أنواع البضائع ، كما يستطيعون تسلية أنفسهم بقراءة المجلات الهزلية طالما كان في وسعهم ألا يغفلوا عن مراقبة مؤخر العربات فلم يكن في مقدور الصغار أن يدركوا أن مثل هذا العمل التافه سيرجى صاحبه وشيكاً في أحضان البطالة ، أو يجعل منه عاملاً حقيراً غير متخصص تسكره الأيام على قبول أتفه الأجور التي لا تكاد تقوم بأوده . فالأطفال

فى سن الثانية عشرة ، والثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، لا يستطيعون أن يشرئبوا بأبصارهم إلى المستقبل ، وأن يفكروا فى السنوات الخمس أو الست المقبلة . كذلك كان من الممكن إبان سنوات الحرب أن يغادر المدارس تلاميذ كبار السن نسبياً ، ولكن دون السن التى تؤهلهم للخدمة العسكرية فكان يُعهد إليهم بمهام مختلفة يتقاضون عنها أجوراً ضخمة ، مثل تنظيف المصانع ، ونقل أجزاء المصنوعات من آلة إلى أخرى ، وغير ذلك من ضروب العمل التى لا تتطلب إعداداً خاصاً ، أو مهارة ، أو تربية ، ولا تستلزم استخدام الذكاء إلا قليلاً . ولكن هذا الوقت قد انقضى ، وستظل ذكراهم عالقة بالأذهان مدة طويلة ، فإن كثيراً من الأولاد سيظلون على اعتقادهم — مثلهم فى ذلك مثل الكثيرين من الكبار — بأن أصحاب الأعمال ما زالوا فى انتظار خدماتهم ، وما زالوا على استعداد لإغراقهم بالأجور السخية دون مقابل ، ولهذا يكون من العسير إقناعهم بخطأ هذا الاعتقاد ، ما داموا — على حد تعبيرهم — « يستطيعون ذكر أمثلة محسوسة تؤيده » .

بضاف إلى كل ذلك أن الأولاد والبنات يولعون بقراءة الكثير عن الرجال والنساء الذين هبط عليهم الثراء فجأة ودون جهد ، نتيجة لتوفيق مفاجئ ، فى أحد مناجم الذهب أو آبار البترول . كما تتناهى إلى أسماعهم من حين لآخر أخبار بعض من أصابوا أرباحاً جسيمة من وراء المراهنة فى مباريات كرة القدم ، أو الاشتراك فى مسابقات الكلمات المتقاطعة ،

مما يجعلهم يؤمنون بأن النجاح في الحياة يتوقف على الخط ، أكثر مما يتوقف على الجد والمثابرة والعمل المتقن . وكثير من الكبار — وربما كان هذا حال الغالبية من المقامرين — يقامرون بمبالغ ضخمة من المال ، ويحدون لذة بالغة في انتظار النتيجة . وهم عموماً لا يكثرثون لنوع النتيجة ، سواء أكانت نجاحاً أم إخفاقاً . بيد أن الكثيرين من الناس يؤمنون بأن الخط لا بد مقبل عليهم يوماً ما ، حاملاً معه الغنى والثراء .

فلا بد للطفل إذن أن يكون عن العالم فكرة تتضمن بشكل واضح أثر استخدام الذكاء ، والإخلاص في العمل ، وفهم طبيعة المركز الذي يشغله الفرد في الحياة ، في الظفر بالجزاء المادى والنفسى ، (بغض النظر عما يذكره بعض المحظوظين الناجحين في عملهم عن أهمية الدور الذى تلعبه « المصادفة ») . فمن الناحية المادية يكفل العمل لنا ما يكفى حاجتنا من الغذاء والكساء والمأوى . ومن الناحية النفسية نشق منه متعة ولذة ، كما يجعلنا نحس السعادة في خدمة الغير ، وخاصة من نحبه منهم ، ويتيح لنا أن نظفر بالإشباع من وراء اعتراف الناس بقدرنا ، وبقيمة عملنا . كما يجعلنا قادرين على قضاء أوقات فراغنا بالشكل الذى نريده ، فإما أن نضاعف من الإشباع الذى خبرناه من قبل ، وإما أن نكتشف ألواناً جديدة منه .

ولم تكن مغادرة المدرسة في وقت مبكر من شأنها أن تتيح للمدرسة فرصة كافية لإعداد تلاميذها للحياة التى هم مقبلون عليها عن طريق تنمية

النظرة السديدة إلى هذه الحياة عندهم . فكان الولد ، أو البنت ، يقبل على العمل الذى يعبد به إليه ، دون أن يكون مزوداً بغير النظرة الساذجة التي صورناها . ولم يكن يشذ عن ذلك منهم سوى من أسعده الحظ بأب من أصحاب المهن المحترمة ، أو من سرقة القوم ، فإن التقاليد الاجتماعية لهذه الطبقات كانت تفرض عليهم الاستمرار في تعليم أبنائهم حتى يبلغوا مرحلة المراهقة أو يتجاوزوها . وكانت المدارس التي يرسلون إليها أبناءهم ، والجامعات القديمة التي يتلقون فيها تعليمهم ، تقصر جهودها على تدريب طلبتها على أسلوب معين من الحياة يتمشى مع التقاليد السائدة ، وهى تقاليد « الرجل المهذب » ، فكانت تعدّهم للخدمة في الجيش أو الأسطول ، أو الانخراط في سلك البلاط أو الكنيسة .

ولكن قانون التعليم الجديد في إنجلترا سيّطيل فترة التعليم بالنسبة لكل طفل يلتحق بمدارس الدولة ، بحيث يقضى جانباً من مرحلة المراهقة في المدرسة . وسيقسم الأطفال إلى فئات تتلقى كل منها النوع الذى يلائمها من التعليم . ويقوم هذا التقسيم على أساس اختبار قدراتهم واستعداداتهم ، مع العناية برغبات آبائهم . ويتجه التفكير في الوقت الحاضر إلى إنشاء أنواع ثلاثة من المدارس ، بعضها قائم بعمله فعلاً الآن ؛ فيلتحق بالنوع الأول منها جميع الأطفال الذين يحتمل أن ينحوا فائدة من التعليم الذى لا يختلف عن النوع المألوف في المدارس الثانوية الحالية ، وهو الذى يعدّهم للوظائف العامة ودخول الجامعات ، طريق الاطلاع

والدروس التقليدية ، وإجراء التجارب في المعامل . ويلتحق بالنوع الثانى الأطفال الذين يلائمهم التعليم الفنى الذى لا يهمل شأن الكتب والدروس النظرية تماماً ، ولكنه يهتم قبل كل شئ بتدريب التلاميذ على العمل الحقيقى فى المصانع والمعامل . أما النوع الثالث فلم يتحدد بعد تمام التحديد ، ولكننا نستطيع أن نتكلم عنه مؤقتاً باسم « المدارس الحديثة »^(١) ، ووظيفة هذه المدارس إعداد التلاميذ للحياة الحديثة عن طريق تزويدهم بقدر ملائم من « التربية العامة الحسنة » ، ويدخلها غير ذوى الاستعدادات الخاصة أو الذين يعززون احترام المهنة اليدوية ، أو الأعمال العامة .

ولما كان من غير المحتمل أن يكون تقسيم الأطفال فى سن الحادية عشرة نهائياً مهما بذلنا من حرص وعناية ، فلا بد أن تعتر السنوات الأولى فى جميع المدارس على اختلاف أنواعها مرحلة تمهيدية ، يقصد بها اختبار مدى ملاءمة المدرسة لحاجات التلميذ ، بحيث يمكن نقله فى أى وقت إلى أحد النوعين الآخرين إذا ما اقتضت الضرورة ذلك . وهذا يتطلب توحيد مناهج الدراسة فى هذه المرحلة التمهيدية ، حتى لو اختلفت طرق التدريس فيها .

وفى النوع الثالث من المدارس ، أى « المدرسة الحديثة » ينفسح المجال أمام المعلمين والمشرفين على إدارتها لإجراء التجارب ، وذلك لخلوها من التقاليد الدائمة ، فإن حاضرها لا يستهدى بماضيها إلا قليلاً ، كما أن

(1) Modern Schools.

ما يظهر فيها من مشكلات يفوق ما تصادفه في مدارس اللغة^(١) والمدارس الفنية . ويرجع ذلك إلى نظام الاختيار ، فإن تلاميذ المدرسة « الحديثة » لا ينتقون لها بسبب ما لديهم من مزايا ، بل بسبب ما ينقصهم منها . فهم الذين لا يصلحون لمدارس اللغة أو المدارس الفنية ، أى المتخلفون بعد عملية الاختيار .

ولعل الزمن والتجربة كفيلا أن يهديتنا إلى وسائل ناجحة لتقسيم هذا الخليط المتناثر من الأطفال إلى فئات متجانسة ، كما أنهما قد يوحيان إلينا بطرق معينة على عمل تقسيمات أخرى ، وإنشاء أنواع مختلفة من المدارس الحديثة . أما في الوقت الحاضر فإن جدة المشكلة تضطرننا إلى توخي الحرص ، ومراعاة الحذر ، في إبداء آراء قاطعة ، إذ ما زالت تنقصنا الحقائق التي نستطيع أن نقيم عليها مثل هذه الأحكام اليقينية .

وكل ما نعلمه هو أن هذه المدارس سوف تضم بين جدرانها طائفة من التلاميذ الذين يكون ذكاؤهم دون ذكاء تلاميذ مدارس اللغة أو المدارس الفنية ، وإن لم يكونوا من الضعف العقلي أو التخلف بالدرجة التي تجعلهم في حاجة إلى مدارس خاصة . فهم لا يظهرون من القدرات اليدوية والمهارات ما ينبىء عن صلاحيتهم للمدارس الفنية ، كما يبدو عليهم أنهم دون التلاميذ الصالحين لمدارس اللغة من حيث الاستعداد للاستفادة

(١) Grammar Schools. وهى مدارس ثانوية كانت فى الأصل تتخذ من

تعليم اللغة اللاتينية محورا لنشاطها ، ثم تطورت بمرور الزمن إلى مدارس ثانوية نهائية تعد طلابها لامتحانات العامة ودخول الجامعات . (المترجم)

من طرق التدريس العادية والكتب . وإذا كان لديهم فعلا بعض القدرات والاستعدادات الخاصة ، فإنهم لم يستطيعوا إظهارها . ويرجع ذلك في أغلب الأحوال إلى الإخفاق في معرفة كيفية استخدام الذكاء في الحياة عن طريق استغلال الميول والاهتمامات ، أكثر مما يرجع إلى نقص في هذا الذكاء . ولهذا سيكون من وظيفة المدرسة الحديثة تنمية الاهتمامات النافعة عند من لا يملكون منها شيئاً من الذكور والإناث على السواء .

وليس من العسير الإسراف في تأكيد أهمية الذكاء ، فالزعماء ، والمفسكرون ، والمخترعون ، والعمال الذين يؤدون أعمالاً تحتاج إلى التصميم والابتكار ، كلهم رجال ذوو ذكاء فوق المتوسط . ولكن الذكاء المتوسط يكفي لمعالجة أمور الحياة العادية بنجاح ، ولا يخفق صاحبه في ذلك إلا عند ما تعترض حياته بعض التغيرات المفاجئة التي لا يستطيع التكيف لها إلا ببطء ومشقة . أما معظم أمور الحياة المألوفة في متناول ذوي الذكاء العادي ، أو الأقل من العادي في بعض الأحيان ، وهؤلاء هم الذين يقتنعون من حياتهم بالأعمال النمطية البسيطة التي يضيق الأذكاء بها ، لأنهم يعلمون وسائل أفضل لأدائها . وهكذا فإن الذكاء لن يعوق معظم تلاميذ وتلميذات المدارس الحديثة عن العثور في ميادين العمل على مكان يلائمهم ، ويدرّ عليهم من الأجر ما يكفي حاجاتهم ، ولا يتطلب النجاح فيه قدراً من الذكاء أكبر مما لهم .

أما في المدرسة العادية فإن الطفل ذا الذكاء العادى يكون معوقاً من الناحية السيكولوجية بسبب اضطرابه للتنافس مع غيره ممن يفوقونه في الذكاء. ف هؤلاء هم الذين يحظون بعناية المدرسين ، ويحتون المراكز الممتازة في فصولهم. ويصبح لزاماً على مدرسه أن يتعرف اتجاه اهتماماته ، ويربطها بدراساته ، حتى يستطيع إغراءه على توجيه هذه الاهتمامات إلى العمل المدرسى ، ويجعله يشق من أدائه ما هو في حاجة إليه من الإشباع . ولذلك لا بد للمدارس الحديثة من نخبة من المدرسين الأكفاء ، الذين يتميزون بالمرونة التي تعينهم على عرض هذه المادة بطرق متنوعة ، لا مجرد تقديمها لتلاميذهم بنفس الطرق التقليدية التي تلقوها بها ، كما تتميز نظرتهم إلى الأطفال بروح الفهم والعطف والمحبة .

وجلى أن إحدى الوظائف الرئيسية لهذه المدارس هي العمل على اتصال التلاميذ بالعالم الخارجى بكافة الطرق التي تكفل اهتمامهم به ، وتشعرهم بحقيقة مركزهم فيه . فلو أمكن تنظيم اتصالهم بمصالح الحكومة ، والمصانع ، والشركات ، وغيرها تنظيماً مستمراً ناجحاً ، فإن التلاميذ سوف يدركون أن في الإمكان الحصول على الإشباع النفسى عن طريق العمل ، وأن التعاون مع الآخرين يكفل لهم نفس اللذة التي يتيحها لهم اللعب في الفريق ، وأن العمل المثمر في العالم يتطلب بذل مجهود تعاونى ضخم ، يشعر كل فرد يساهم فيه بأنه عنصر هام من عناصره ، بمعنى أنه إذا انفصل عنه فلا بد لغيره أن يحل مكانه . وقد نجد من حين لآخر في بعض الأذكاء من الأطفال ميلاً

إلى النقد ، والسكن في إمكاننا أن نجعلهم يدركون أن القدرة على النقد ، واقتراح وسائل أفضل للعمل ، سوف تصبح في الموقف المناسب ذات قيمة كبرى للنظام الذين يساهمون فيه بنصيب .

ولقد ساد الاعتراف أخيراً بقيمة المناقشة كطريقة من طرق التربية . وما لا شك فيه أن المناقشة لا تكون ممكنة إلا إذا كان المشتركون فيها مزودين ببعض المعلومات عن موضوعها . فإذا خرج التلاميذ في رحلة زيارة أحد المصانع مثلاً ، وأتيحت لهم الفرصة للملاحظة الدقيقة والسؤال والاستفسار ، فلا بد أن يحفزهم ذلك إلى التفكير فيما وقعت عليه أبصارهم ، فيصبحون على استعداد لمناقشة ما استخلصوه من النتائج . فالزيارة والمناقشة تخلقان الشعور بالزمالة ، وتنضيان إلى الإشباع الذي يعتبر ثمرة لبذل الجهود الجمعي . وهذا في ذاته عنصر هام في العملية التي ترمى إلى جعل الطفل صالحاً للتعاون مع غيره في العمل من أجل المعاش .

ولمناقشة الخبرة نتائج أخرى ، فهي تضطر الفرد إلى الانتباه إلى الخبرة ذاتها مقدماً ، إذ بغير هذا الانتباه لا يستطيع أن يشترك في المناقشة بنجاح ، أما إذا أحسن الانتباه فإنه قد يكون قادراً على القيام بدور رئيسي فيها . كذلك تحفزه المناقشة على إعمال الفكر والتأمل فيما انتبه إليه ، حتى يكون في وسعه أن يكون عنه فكرة يستطيع بسطها والدفاع عنها .

والولد الذي يقوم بزيارة إدارة الأمن العام ، أو أحد أقسام الشرطة ، ليتعلم شيئاً عن نظام فرض القانون في المدينة أو الحى الذي يعيش فيه ،

وليعرف طريقة الانحراط في سلك رجال الشرطة ، ووسائل تدريبهم .
وطبيعة الواجبات المتبادلة على عاتقهم ، وماهية السلطة التي يمارسونها ، هذا
ما ولد يستطيع ، من مثل تلك الزيارة ، أن يحصل على قدر من المعلومات
يمكنه من مناقشة ما رآه مع زملائه فيما بعد ، ومن التعبير عن رأيه فيه ،
والدفاع عن وجهة نظره ضد ما قد يوجه إليها من نقد . وكل ذلك يجعله
مختلفاً تمام الاختلاف ، في درجة ترقيه ، عن ذلك الصبي الذي اعتاد أن
يعبر عن رغبته الساذجة في أن يصبح يوماً ما من رجال الشرطة . وليس
معنى هذا أن الرغبات الكامنة وراء رغبة الطفولة الأولى قد اختفت واندرت
تأثيرها ، فالحقيقة أنها لا زالت موجودة ، وستظل كذلك مدى الحياة ،
ولكن كل ما حدث هو أنها اتخذت لنفسها اتجاهاً جديداً سليماً ، إذاً أصبح
الصبي ميالاً إلى إشباعها إشباعاً حقيقياً في عالم الواقع لا في عالم الخيال .
وبهذا غدا قادراً على اكتشاف مواطن الخطأ في اعتقاده بأن مهنة الشرطي ،
أو ما شابهها من المهن الأخرى التي كانت محور تفكيره وآماله ، هي الوسيلة
الوحيدة لتحقيق رغباته .

وتنتج بعض التجارب التي تجري في المدارس الحديثة إلى الاهتمام بأداء
العمل أكثر من الاهتمام بمجرد مشاهدته . ولكن لما كان من العسير جعل
المدرسة شبيهة تمام الشبه بالمصنع الحقيقي بما فيه من ورش وأقسام وإدارات
فإن المدرسة تقنع بالأعمال التي تتطلب ممن يقومون بها أداء عمل حقيقي ،
كأن يقوم الأولاد مثلاً بإقامة محيم دائم يشرفون على إدارته والعناية به

بأنفسهم ، أو إذا كانت المدرسة واقعة بالقرب من ساحل البحر فإنها تحصل على بعض القوارب التى يتعلم التلاميذ طرق استخدامها ، ووسائل المحافظة عليها . كذلك يستطيع التلاميذ والتلميذات تعهد مزرعة المدرسة بالعناية ، وأداء جميع ما تستلزمه من أعمال ، فيكافأون على ذلك بأخذ نصيبهم من ثمار أشجارها ، ولبن أبقارها ، ولحوم خرافها وجلودها . وهكذا يحبون نوعاً من الحياة مختلفاً عن حياة أولئك الذين لا يحصلون على طعامهم إلا مقابل ما يقدمونه لغيرهم من مال لم يبذلوا من ناحيتهم أى مجهود لكسبه ، ودون أن يحاولوا إنتاج هذا الطعام بأنفسهم . وهذا شبيه بتلقى الطعام من الأم فى الطفولة ، أو المنح والهدايا من الأب فى الصبا . أما التلميذ الذى يتعاون مع أقرانه فى إنتاج غذائه بمجهوده الخاصة ، فإنه يتعلم عن طريق الخبرة ما لحياة الراشد من معنى وقيمة .

وقد يوحى التحدث عن تنظيم المدرسة على هذه الصورة بضرورة التخلي عن المنهج الدراسى التقليدى . بيد أن هناك اعتراضات قوية ضد محو كل أثر للتقاليد ، فقد كان هذا المنهج التقليدى ذا تاريخ طويل حافل ؛ وفى الوسع الدفاع عنه دفاعاً معقولاً ، لأنه قد أدى خدمات جليلة لأجيال كثيرة كما أنه ما زال نافعاً من بعض الوجوه . فالتطور مفضل على الثورة والانتقال وقد نجد بين أنصار المنهج التقليدى بعض الرجعيين الجامدين ، ولكنهم ليسوا جميعاً كذلك . بيد أن الكثيرين منهم يشعرون بقيمة التربية التقليدية ، ولا يميلون إلى الانصراف عنها والاعتماد على شىء قد تنجم عنه

خسائر حقيقية ، على الرغم مما قد يكون له من المزايا الواضحة . وهذا يفسر لنا ظهور عدد كبير من الكتب في الوقت الحاضر تبحث كلها في المنهج ، وتدعو إلى تنظيم المؤتمرات ، وتعقد اللجان ، لبحث وجوه إصلاحه .

ويدفعنا ذلك إلى التساؤل عن مصير الرياضة واللغات والتاريخ والجغرافيا والعنوم بالنسبة للتلاميذ الذين سينفقون كل وقتهم في إقامة المعسكرات ، والعمل في المزارع ، والانصراف إلى تسيير القوارب ، وزيارة المصانع وإدارات الحكومة ، وإنشاء إدارات مصغرة . ماذا سيكون مصير التربية ، و « التربية العامة الحسنة » التي أشاد بها تقرير (هادو) ، واتفق المربون على ضرورة اتخاذها هدفاً لكل مدرسة أيا كان نوع نظامها وأسلوب إدارتها ؟ وماذا عسى أن يكون مصير الفن والموسيقى ؟

لقد كان الاهتمام في الماضي منصباً على ما لهذا المواد من قيمة في التدريب الذهني ، وكان الرأي السائد هو أن كلا منها يدرّب « ملكة » خاصة من ملكات العقل ، وهي ملكات قد اختلفت الآراء من حين لآخر في ماهيتها وعددها . وكان البحث في أسرارها وخواصها من اختصاص رجال الفلسفة العقلية . ولكن انتقل « نظرية الملكات » إلى ميدان علم النفس أثار حولها الزيب والشكوك ، فقد دلت التجارب الحديثة على خطأ عدد من النتائج المتعلقة ببعض تلك الملكات ، وخاصة فيما يتعلق بتدريب التذكر الذي كان يُعتقد أنه يتوقف على حفظ مقطوعات طويلة من الكتب المقدسة ، والمؤلفات القديمة ، والأدب الإنجليزي ، أو استظهار

التواريخ ، وما أشبه ذلك . ولكن هذه التجارب لم تنقض الرأى القائل بأن التدريب العقلى فى ناحية معينة قد ينتقل أثره إلى ناحية أخرى يكون بينها وبين الأولى عناصر مشتركة ، فقد أمكن التدليل على إمكان حدوث ذلك بشرط أن يكون الشخص شاعراً بوجود هذه العناصر المشتركة . فقد دلت التجربة على أن التلميذ قد يتعلم الطبيعة أو الكيمياء مثلاً ، ولكنه يخفق فى إدراك أن النظرة العلمية إلى الظواهر المختلفة لا ينبغى أن تكون مقصورة على العمل وحده ، أو أن منهج البحث العلمى لا بد من أن يطبق ، لا على الطبيعة والكيمياء وعلوم الحياة وحدها ، بل على مشكلات الحياة جميعاً . كذلك التلميذ الذى يتعلم أن مادة التاريخ تتكون من دراسة حياة الملوك ، وأعمال العظماء ، وقصص الحروب ، ونصوص المعاهدات ، لا يستطيع أن يدرك أن جميع ما يحيط به من أشياء ، سواء فى المدرسة أو ميدان الحياة ، له تاريخه أيضاً ، وأن الماضى يؤثر فى جميع مظاهر حياتنا الراهنة ، وأننا يستحيل علينا فهم الحاضر دون الاسترشاد بالماضى .

لهذا يحتمل إذا ما سارت بعض نظم التربية وفق المنهج التقليدى ، أن يتمكن التلميذ من إتقان مواد الدراسة ، والتفوق فى امتحاناتها ، والاستمرار على دراسة هذه المواد دراسة مستفيضة فى المدارس والجامعات ، ولكن ذلك لن يصل بنموه إلى الدرجة التى تجعل من هذه المواد جزءاً من حياته ، لا مجرد جزء من دراساته ، أى الدرجة التى تجعلها ذات تأثير تأثير فى تفكيره ونظرته إلى الحياة .

ومن المهم أن نلاحظ أن غالبية تلاميذ المدارس الفنية ، والمدارس الثانوية الحديثة ، لن يتح لهم دخول الجامعات ، وأن ما يتلقونه من تربية شكية مدرسية سوف ينتهى بمجرد مغادرتهم المدرسة ، كما أن عدداً محدوداً من أفراد الأقلية التى يستمر تعليمها فى المدارس الثانوية إلى آخر مراحلها ، ثم يلتحقون بعد ذلك بالجامعات ، هو الذى سيتخذ من التاريخ ، أو الجغرافيا أو الرياضة ، أو العلوم مهنة له . فما الداعى إذن لأن نخضع المنهج التقليدى كله لنظام تربوى واحد ، كما لو كنا نهدف إلى الوصول بهم إلى هذه الغاية وحدها ؟

من ذلك نرى أن من الضرورى أن نهتم بكل من حاجات الطفل ومطالب المنهج معاً . فإن الاهتمام بالواحد دون الآخر لا بد أن يؤدى إلى نظرة ضيقة ذات جانب واحد ، ومثل هذه النظرة لا تصلح لحل المشكلة . وعلى الرغم من أن التلميذ قد يدرس التاريخ مثلاً ، ومع ذلك يظل جاهلاً بسائر نواحي الحياة ، فإن من المستحيل أن نكمل تربيته وتعليمه بدون بعض الإلمام بالتاريخ على أنه عملية حية تستحق التقدير . فلا بد إذن أن ندرس التاريخ فى المدرسة الثانوية الحديثة . ولكن أى نوع من التاريخ هذا الذى ندعو إلى تعليمه ؟ وأى الطرق ينبغى اتباعها فى تدريسه ؟ ومثل هذا يقال عن الرياضة والجغرافيا والعلوم . فدراسة العلوم مثلاً قد تبدأ بالتعاريف والمبادئ الأولية ، أو قد تبدأ بدراسة ما يحتوى المطهى الحديث من أدوات وأجهزة . كذلك قد يبدأ تدريس التاريخ بالعصر الحجرى ،

أو بدراسة الإدارة البلدية المحلية أو مكتب البريد ، أو يتخذ من السيارات نقطة بداية لتتبع تطور وسائل النقل تتبعاً رجعياً . كذلك من المستطاع تنمية المعلومات الرياضية عن طريق التنظيم الدقيق للحقائق الشيقة التي يجمعها التلاميذ بأنفسهم من شتى المصادر التي تيسر لهم . وتنمية المعلومات الجغرافية عن طريق دراسة التلاميذ للمنطقة المحلية ، فلا يتعلمون بذلك الجغرافيا وحدها ، بل ويتعلمون أيضاً استخدام طرق الجغرافيا في فهم البيئة التي يعيشون فيها .

ولابد أن نذكر دوماً أن مشكلات المنهج بالهيئة البسيطة . فقد يحاول بعض المصلحين إدخال تغيرات شاملة على المنهج حتى يغدو ملائماً لحاجات يحسون أهميتها وضرورتها . ولكن الإصلاحات المرجلة قد تخالف من المشكلات أكثر مما تحل . وقد رأينا أن من الأهداف التي لا بد أن ترمى إليها تربية المراهق إزالة الصراع الذي قد يقوم بين تلك الاتجاهات النكوصية للأطفال ، والاتجاهات التقدمية لسن الرشد . وليس معنى هذا كبت حاجة الطفل إلى الإشباع النفسى ، بل إنه يعنى تحقيق هذه الرغبات في عالم الراشدين . كذلك تهدف هذه التربية إلى تنمية الذكاء عن طريق استخدامه في حل المشكلات الملائمة ، كما تهدف إلى تزويد الفرد بالمعلومات الضرورية للراشد الحسن التربية والتعليم في العصر الحاضر ، وتدريب الانفعالات بشكل يفضى إلى الاتزان الوجدانى ، وإعداد المراهق لحياة الراشد بما تتطلبه من تعاون مع سائر أفراد المجتمع بصفته مواطناً وأباً وعاملاً

ولذلك فإن كل تغيير في المنهج لا بد أن يكون مسبوقاً بالدراسة العميقة حتى لا يكون الإصلاح في ناحية على حساب ناحية أخرى .

ولقد كانت بعض الطرق الحديثة التي ظهرت في الميدان في أوقات متفرقة تقابل بالكثير من الحماس والترحيب . ولكن الزمن كان كفيلاً بالكشف عن عيوبها ونقائصها . فطريقة المشروع^(١) التي يقوم التلميذ فيها ، إما بنفسه أو بالتعاون مع غيره ، بتنفيذ عمل معين بناء على خطة موضوعة ، يبدو أنها في حاجة إلى الاستعانة ببعض الطرق الأخرى لاستكمال ما بها من نقص . وطريقة دالتون^(٢) التي تقسم المواد فيها إلى إلى تعيينات يستعين التلميذ على دراستها بالكتب والمراجع ، ويستهدى برأى المدرسين المختصين كلما أحس حاجة إلى ذلك . تبدو أيضاً محدودة المدى ، وفي حاجة إلى معونة الدروس العادية والمحاضرات ووسائل الإيضاح ويمكن توجيه هذا النقد ، مع بعض التغييرات الضرورية . إلى سائر الطرق الحديثة .

وقد وُجّه كثير من النقد إلى طرق التدريس القديمة ، وهي الطرق التي تعتمد على إلقاء الدروس والمحاضرات ، إذ لم ير المصلحون المتحمسون منها سوى مواطن الضعف ، ومواضع النقص ، فعملوا على القضاء عليها قضاء مبرماً . أما سواهم من المتروكين فقد اعترفوا لكل طريقة منها بميزتها

(1) The Project Method

(2) The Dalton Plan

وحدود نفعا ، فعرفوا كيف يستخدمونها جميعا استخداما حكما . فمدرس الإنجليزى فى العصر الثكتورى لم تكن له يد فى اختيار طريقة العمل فى مدارس الدولة التى يقوم بالتدريس فيها . إذ كانت حجرات الدراسة مكتظة بالطلاب ، وكان السج ضيقا صارما ، والأبنية لا تتوافر فيها الشروط الصحية ، والأثاث رديئا ، ووسائل الإيضاح ناقصة قليلة . فكان التلاميذ يلقون معاملة خسنة شبيهة بمعاملة المتطوعين فى سلك الجندي فى أثناء التدريب . أما المدرس الحديث فإن الواجب الملقى على عاتقه مختلف ، كما أنه أكثر إمتاعا وإثارة للاهتمام ، وهو فى الوقت نفسه أشد صعوبة وأعظم مسئولية . فالمدرس يتمتع بقسط كبير من الحرية ، ولكن هذه الحرية تجر فى أذيالها التبعات الجسام .

كذلك استخدام مختلف أنواع الاختبارات يعمل على إحداث تغييرات كبيرة فى طرق التدريس ، وفى اتجاهات التلاميذ حياتها . فاستعمال اختبارات الذكاء فى الجيش أشعر كثيرا من الناس بقدرة المختبر على قياس درجة ذكاء الفرد ، وتحديد المهام التى تلائم قدرته العقلية . ولكن قليلا منهم استطاع أن يفهم حقيقة العمل الذى تقوم به لجان الاختبار ، وهو استخدام التجارب للتنبؤ بمدى احتمال نجاح فرد من الأفراد فى أداء عمل جديد عليه ، أو عمل سيبدأ فى التدريب عليه . ومع ذلك فإن القيمة التنبئية للاختبارات هى التى تفوق فى أهميتها قيمتها التشخيصية .

وقد أجمعت الآراء على أن اختبارات الذكاء الحالية أبعد ما تكون

عن الكمال . فعلى الرغم من استخدامها بنجاح فى تقسيم التلاميذ لمعرفة من يصلحون منهم للاستمرار فى التعليم ، أو لتحديد أنواع المدارس التى تلائمهم ، فإنها ليست مرضية بالشكل الذى ينبغى أن تكون عليه إذا ما شئنا أن نعتمد عليها تمام الاعتماد فى اتخاذ قرارات حاسمة بشأن الحالات المشكوك فيها . ومع ذلك نستطيع أن نؤكد الآن أن هذه الاختبارات أكثر الوسائل الميسورة نجاحاً فى النبؤ .

فدعنا الآن منها ما يجعل فى استطاعتنا أن ننبئ أحد الأطفال عن مستواه العقلى ، وعما يحتمل أن يصيبه من نجاح فى عمل من الأعمال . كما نستطيع أن نفصل فى ضوءها عدداً من المهن التى تلائم مختلف القدرات التى يكشف عنها عالم النفس عند الطفل . فقولنا للولد ، أو البنت ، أنه يقدر على إتقان عمل خاص ، أو يملك قدرات معينة ، يولد عنده الثقة بالنفس ، ويجعل فى مقدوره أن ينظر إلى قدراته فى ضوء جديد ، كما يكشف له عن غاية للعمل تختلف عن غاية كسب الأجر ، وينبئه بأن مهنة معينة تتيح له الفرصة لإبراز مواهبه . وعندئذ يمكننا أن نحدد له أنواع الدراسات التى تكفل له الاحتفاظ بهذا العمل الذى يلائمه . فإذا انبعنا الاختبار بالتوجيه الذى يعين الطالب على تبين الغاية التى ترمى إليها دراساته ، كى يجعل من هذه الغاية أمراً شخصياً يهمه ، فمن المؤكد أنه سوف يوجه جميع طاقاته نحو إعداد نفسه لشغل المركز الملائم له فى الحياة . فالطالب الذى يعمل فى أحد المصانع أو المصالح بعد تخرجه فى

المدرسة ، ويتخذ من هذا العمل وسيلة للاستمرار في الدراسة ، لا بد أن نجد في عمله حافزاً له على محاولة زيادة فهمه له بدراسته . وهنا أيضاً نجد أن فهم طبيعة مشكلاته فهماً مشروباً بالعطف ، وتقدير اتجاهاته حيال هذه المشكلات ، سوف يساعد كثيراً على توجيه ميوله نحو مسالك نافعة . ولا شك أن إقبال المصانع نفسها على استخدام المشرفين الاجتماعيين الذين يفهمون مشكلات المراهقين الناشئين ، ويوالون الاتصال الوثيق برجال التربية وعلماء النفس ، لا بد أن يؤدي إلى الحد من عنف الصراع القائم بين رغبة الناشئ المكنية في الوصول إلى حياة الرشد من ناحية ، وبين ميله إلى التعلق بأهداب اتجاهات الطفولة ومطامحها من ناحية أخرى .

وقد يقال في بعض الأحيان أن المربي ، إذ يعد الطفل لحياة الراشد كما يعرفها هو ، إنما يجعل من نفسه داعية للنظام القائم . ولكي تتجنب الجدل العقيم لا بد لنا أن نحدد معاني الألفاظ التي نستخدمها . ليس من الدعاية في شيء أن نذكر ما نعتقد أنه الحقيقة ، بل الدعاية هي أن نبسط الحقائق بصورة يقصد بها حمل الناس على تصديقها ، وتغيير سلوكهم وفقاً لذلك . فالمرابي الذي يؤمن بالتربية ، ويحاول دوماً أن يفرض سواء من الناس على مشاطرته هذا الإيمان ، والعمل بمقتضاه ، قلما يستطيع تجنب اتهام الناس له بالدعاية للتربية . صحيح أنه يقدم لنا الحقائق كما يعرفها ، ولكنه يتجاوز هذا الحد بكثير ، لأنه يطلب من سامعيه أن يتخذوا من تأويله لهذه الحقائق مقدمات يستنبطون منها ضروب السلوك الصائب ،

وأنواع السلوك الخاطئ . . ومن ثم يكون عليهم أن يكتفوا سلوكهم وفق هذه النتائج . فهو إذن لا يعرض الحقائق عن التربية بأسلوب الكيميائي المجرد عن الهوى ، الحافل بانعادات الجامدة الصارمة ، أو بأسلوب الجيولوجى الذى لا يهتم بغير تحديد عمر الأرض ، فإن كلا من الكيميائى والجيولوجى يقدم لنا الحقائق كما هى ، دون أدنى اكتراث بإيماننا بها ، أو إنكارنا لها ؛ فإذا آمنّا بها فنحن على صواب ، وإذا أنكرناها كنا على خطأ .

ويحاول المربي ، من الناحية العملية ، أن يستغل الحقائق ، لا ميوله الخاصة ومعتقداته ، فى تحقيق غاياته . فالأطفال قادرون على أن يكتشفوا بأنفسهم صدق بعض الحقائق ، وزيف البعض الآخر . وفى الحالات الأكثر تعقيداً ، كالمثال الذى أوردناه ، نجد أن التلاميذ أثناء دراستهم لطرق العمل المتبعة فى الإدارات المحلية مثلاً ، يلاحظون كل شئ بأنفسهم ، ويلقون من الأسئلة ما يعنّ لهم ، كما يستخلصون من النتائج ما يستطيعون استخلاصه . وهكذا تظهر وجهات النظر المختلفة فى حلقات المناقشة ، وينبرى لها المؤيدون والمعارضون ، ثم يلجأ التلاميذ عادة إلى سؤال المدرس عن أسدّها ، وبدلاً من أن يدلّ المدرس برأى قاطع يقفل به باب المناقشة ، يكون عليه ، بوصفه رئيس الجماعة ، أن يطلب إليهم التفكير فى النواحي المختلفة لموضوع البحث ، ويوالى توجيه انتباههم إلى الحقائق التى يكونون قد غفلوا عن تناولها والتعرض لها . وهذا أمر مختلف

تماماً عن التحزب لرأى من الآراء ، أو استغلال المدرس لنفوذه وسلطته في فرض معتقداته الشخصية على التلاميذ . فموقف المدرس من الحالة الراهنة لا بد أن يكون موقف من يذكر أن هذه الحالة حقيقة واقعة ينبغي قبولها كما هي . ولكن عليه أيضاً أن يشير إلى أن الحاضر ليس أكثر من نقطة جزئية في كل دائم التغير ، وأن تغير هذا الكل إنما هو نتيجة لمجهود من يعملون في داخله من الرجال والنساء . كما يشير إلى أن من واجب كل فرد يحس فيه نقصاً أن يدخل إلى الميدان ، ويحاول بطريقته الخاصة أن يحدث فيه ما يود من التغير والإصلاح . فبعض الناس لا بد أن يكون من العمال ، والبعض الآخر من الكتّاب ، أو الخطباء ، أو أعضاء المنظمات السياسية أو الهيئات الدينية ، ولكن لا بد لكل واحد منهم أن يتحمل نصيبه ، كفرد راشد ، من مسئولية ما يعتزم الإقدام عليه من عمل . يعتقد أنه أفضل الوسائل لإصلاح النقص الذي لمسه . قد يكون هذا دعاية وقد يكون تربية . فهو تربية من حيث أنه يدرّب التلاميذ على إدراك الحقائق المسلم بها . وهو دعاية بقدر ما يعبر عن العقيدة الديمقراطية ، وبقدر ما يحفز الطلاب إلى الإيمان بها ، ولكنه ليس بحال من الأحوال من نوع الدعايات التي يقصد بها خدمة حزب أو مذهب سياسي .

فإذا نظرنا إليه على أنه دعاية ، فلا بد لنا أن نؤكد ضرورته لإعداد الناشئين لحياة الكبار في المجتمع ، لأنه يعرفهم بالمجتمع الذي يعيشون فيه بحالته الراهنة ، وبنوع الحياة السائدة فيه ، وهي الحياة التي سوف يحياونها

فى العالم القائم ، وأست الحياة المعنوية فى عالم خيالى . كما أنه يعيهم على
تكوين مثال عليا للحياة وللعالَم ، وهى مُثل يحتمل أن تفضل الحقيقة
والواقع . فهو لا يجعلهم قائلين بتجرد التمتع الوضيعة ، ولما لذ الرخيصة ، بل
يعدم للنشدان السعادة فى عالم يأمون أن يجعلوه أفضل مما هو عليه بجهودهم ،
حتى يكون فى وسعهم أن يحيوا فيه حياة فاضلة سعيدة .
